

أثر الصحافة في تطور المقالة العربية الحديثة

[The Impact of Press on the Development of the Modern Arabic Essay]

Md. Abu Bakar Siddik

Ph.D. Researcher, Department Of Arabic, University of Rajshahi, Rajshahi-6205, Bangladesh

ARTICLE INFORMATION

The Faculty Journal of Arts
University of Rajshahi
Volume-38, December-2024
ISSN: 1813-0402 (Print)
DOI: 10.64487

Received : 10 July 2024
Received in revised: 06 February 2025
Accepted: 07 January 2025
Published: 10 August 2025

Keywords:
Impact, Press, Development, Modern, Essay

ABSTRACT

The essay is a distinguished form of short prose, aligned with the narrative arts in both structure and spirit. Emerging as a novel mode of expression during the Renaissance, it has, in the modern era, ascended to become one of the most celebrated forms of prose in world literature—particularly within Arabic literature, where it flourished through the medium of the press. Indeed, the trajectory of the modern Arabic essay is inextricably bound to the rise of journalism itself. Found abundantly across newspapers, magazines, and periodicals, the essay has served as a vital platform through which writers articulate their reflections on literary questions and societal concerns, striving to shape and stir public opinion. It is also a trusted vessel for scholars and students, who turn to it in academic contexts to present their insights and fulfill examinations. In this research article, we endeavor to illuminate the role of the press in nurturing and shaping the evolution of the modern Arabic essay.

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وتابع سنته إلى يوم الدين أما بعد: إن المقالة فن نثري قصير، وينتمي إلى الفنون السردية على مستوى البناء والشكل، وهو لون جديد من النثر، ظهر في عصر النهضة. ولعل صارت المقالة أشهر الفنون النثرية في العصر الحديث في الأدب العالمي عاماً، وفي الأدب العربي خاصة خلال الصحافة. لأن تاريخ المقالة في الأدب العربي الحديث ارتبط بتاريخ الصحافة ارتباطاً وثيقاً. إذ نجدها تنشر في الصحف والمجلات والدوريات المختلفة، يلجأ إليها الكاتب للتعبير عن أفكارهم حول المشاكل الأدبية والأحداث الاجتماعية، وللتأثير في الرأي العام، كما يعتمد عليها الدارسون والطلاب في تقديم أوراق دروسهم وكثير من اختباراتهم. فنحن نذكر في هذه المقالة البحثية أثر الصحافة في تطور المقالة العربية الحديثة.

مفهوم الصحافة

الصحافة لغةً مشتقة من الصحف جمع صحيفة. والصحيفة- كما شرّحها ابن منظور في لسان العرب- هي التي يُكتب فيها.¹ وفي القاموس المحيط يُقصد بالصحيفة الكتابُ وجمعها صحائف.² وتعني كلمة الصحافة في معجم الوسيط: مهنة من يجمع الأخبار والآراء، وينشرها. والصحيفة هي مجموعة من الصحائف تُصدر يومياً، أو في مواعيد منظمة، وجمعها صحف وصحائف، والصحفي من يأخذ العلم من الصحيفة لا عن أستاذ.³ وفي قاموس أكسفورد تستخدم كلمة صحافة بمعنى (Press) على أنه شيء مرتبط بالطبع والطباعة ونشر الأخبار والمعلومات، وكلمة الصحفي بمعنى

(Pressman) أي رجال الصحافة، وكلمة الصحيفة، يقصد بها (Journal) سواء كانت نشرةً دوريةً أو يوميةً، وهي تعني أيضاً كلمة (Journalism) بمعنى صناعة الصحافة، وكلمة (Journalist) بمعنى الصحفي.^٤

المفهوم الاصطلاحي للصحافة

الصحافة هي فن تسجيل الوقائع اليومية بدقة وانتظام وذوق سليم، مع الاستجابة لرغبات الجمهور وتوجيهه والاهتمام بالجماعات البشرية، وتناقل أخبارها، ووصف نشاطها، ثم تسليتها، وملء أوقات فراغها. وعلى هذا فالصحافة هي مرآة تنعكس عليها صورة الجماعة وآراؤها وخواطرها. وقد ذكر علي أحمد كنعان (الميلاد ١٩٣٦م) تعريفاً للصحافة الحديثة بأنها كل نشرة مطبوعة تشتمل على أخبار ومعلومات عامة وتتضمن سير الحوادث والملاحظات والانتقادات التي تُعبر عن مشاعر الرأي العام وتباع في مواعيد دورية محددة وتعرض على الجمهور عن طريق الاشتراك والشراء.^٥

أما أهداف الصحافة فهي خمسة: أولاً - الإخبار والإعلام. ثانياً - الشرح والتفسير والتعقيب. ثالثاً - الإرشاد والتنوير والتوجيه. رابعاً - تلبية رغبات الجمهور وحاجاته. خامساً - التسلية والإمتاع. ومن هنا أصبحت تشمل فنوناً عديدة أهمها فن الخبر وروايته، وفن المقال وما يتفرع إليه من تعليق وبحث ورواية، وفن التقرير الصحفي (Reportage) وما يتفرع منه من تحقيق (Enquire) وحديث نقد في أو أدبي (Interview). هذا عد فنون التصوير والرسم الكاريكاتوري وسائر أبواب الميادين العامة التي تم الناس.^٦

تطور لفظ "الصحافة" في اللغة العربية

استخدم العرب والأوروبيون عديداً من المصطلحات لوصف الصحافة بأشكالها المختلفة. فعند دخول الصحافة لأول مرة في مطلع القرن التاسع عشر، كان يطلق عليها لفظة "الوقائع"، ومنها جريدة الوقائع المصرية، كما سماها رفاة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣م). وسميت كذلك "غازته"، نسبة إلى قطعة من النقود كانت تباع بها الصحيفة.^٧ وقد أطلق العرب لفظ الغازته على الصحف في أوائل عهدها، تقليداً للأوروبيين؛ حيث يقال إن أول صحيفة ظهرت في البندقية عام ١٦٥٦م، كانت تسمى غازته، فشملت هذه التسمية فيما بعد كل الصحف بلا استثناء. وعندما أنشأ خليل الخوري (١٨٣٦-١٩٠٧م) جريدة "حديقة الأخبار" في بيروت عام ١٨٥٨م، أطلق عليها اللفظ الفرنسي "جورنال". وكان أول من اختار لفظ صحيفة هو الكونت رشيد الدحاح اللبناني، صاحب جريدة "برجيس باريس" الباريسية، وجرى مجراه أكثر أرباب الصحف في ذلك العهد وبعده.^٨ وقد استعمل بعضهم كالكس لويس صابونجي (١٨٣٨-١٩٣١م)، صاحب مجلة "النحلة" لفظة "النشرة" بمعنى الجريدة، أو المجلة. ومن المسميات التي أطلقت على الصحافة "الورقة الخيرية" و"الرسالة الخيرية" و"أوراق الحوادث" وغيرها.^٩

وقد ظل أرباب الصحف في القرن التاسع عشر لا يفرقون بين الجريدة والمجلة إلى أن تولى الشيخ إبراهيم البازجي (١٨٤٧-١٩٠٦م) إصدار مجلة "الطبيب" عام ١٨٨٤م بالاشتراك مع الدكتور بشارة زلزل (١٨٥١-١٩٠٥م) وخليل سعادة (١٨٥٧-١٩٣٤م)، فاستعمل لفظة مجلة، وهو يقصد بها الصحفية العلمية أو الأدبية أو الانتقادية وما شاكلها. والمجلة هنا مشتقة من مادة جلّ جلالاً وجلالة^{١٠} أي عظم وكبر وعلا مقاما وقدرا وحكمة. والمجلة إذن هنا هي الكراسة فيها الحكمة والعلم.^{١١} أما المعنى المتعارف عليه اليوم للصحافة في العربية فيرجع الفضل فيه للشيخ نجيب الحداد

(١٨٦٧-١٨٩٩م)، منشئ صحيفة "لسان العرب" في الإسكندرية، وحفيدة الشيخ ناصف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١م)، وهو أول من استعمل لفظ الصحافة بمعنى صناعة الصحف والكتابة فيها، ومنها أخذت كلمة صحافي.^{١٢} وكلمة صحافي أكثر دلالة من صحفي على من يعمل في الصحافة، فهي الكلمة الأصح لمن يلقب بكلمة (Journalist) في الغرب. أما صحفي (بضم الصاد) فهو خطأ شائع، إذ لا تجوز النسبة إلى الجمع في اللغة العربية ولكن الأصح هو صحفي (بفتح الصاد) نسبة إلى الصحيفة.

نشأة الصحافة وتطورها

إن أقدم جريدة صدرت في العالم هي "كين بان" الصينية التي صدرت عام ٩١١ قبل الميلاد. وهي الصحيفة الرسمية لحكومة الصين.^{١٣} وكانت أول جريدة رسمية صدرت في أوروبا هي (Acta Diurna) أي "السجل اليومي للأخبار"، وذلك في يناير عام ٥٨ قبل الميلاد، وسماها بعض الكتاب اللاتينيين (Acta Populi) أي سجل أخبار الشعب.^{١٤} وبدأت الصحافة الحديثة المنتظمة في إيطاليا أواخر القرن السادس عشر، وفي فرنسا وإنكلترا في بداية القرن السابع عشر.^{١٥} ولكن فرنسا تُعد أول دولة أصدرت صحفاً رسمية حديثة، وهي صحيفة "لا غازيت دي فرانس" (The Gazette de France) أصدرت عام ١٦٣١م. وأول صحيفة يومية ظهرت في فرنسا عام ١٧٧٧م، هي "جورنال دي باريس". وظهر في بريطانيا أول صحيفة يومية عام ١٧٠٢م هي "الديلي كارانت" (The Daily Courant). أما في الولايات المتحدة الأمريكية وقت المستعمرات الإنكليزية فقد صدرت صحفاً هزيلة، حاولت تقليد صحف الجزر البريطانية، وأول صحيفة صدرت في أمريكا الشمالية هي "ذي بابلوك أوكورنس" (The Public Occurrence) عام ١٦٩٠م في بوسطن.^{١٦}

الصحافة العربية

لم تر الصحافة الحديثة المطبوعة النور في العالم العربي إلا في نهاية القرن الثامن عشر بفضل جهود النهضة العربية الحديثة التي شرعت في العالم العربي بالحملة الفرنسية التي قادها الجنرال بونايرت (١٧٦٩-١٩٢١م) إلى مصر عام ١٧٩٨م، وهذه الحملة قد كانت نوعاً من اللقاء بين الشرق والغرب. وتُعتبر هذه الحملة سبباً من أسباب انتشار الثقافة الغربية في بلاد العرب وانبعثت النهضة الحديثة. ومنها الصحافة العربية. وكان الغربيون هم الذين ابتدعوها وحسنوها وجاءوا بها إلى مصر، فلذا تعتبر مصر أول بلد عربي عرف الصحافة المطبوعة، بالرغم من ظهور المطبعة في لبنان وسوريا قبلها، حيث أنشأ نابليون بونايرت ثلاث صحف عام ١٧٩٨م. وأول صحيفة هي "بريد مصر" التي كانت تُصدر كل خمسة أيام وتُقدّم تقارير عن الأخبار المحلية وعن الأخبار الأوروبية في بعض الأحيان، وثانيها المجلة "العشرية المصرية"، وهما كانتا باللغة الفرنسية. وثالثها كانت باللغة العربية باسم "الحوادث اليومية"، كان محررها إسماعيل بن سعد الخشاب (١٧٠٠-١٨١٥م)، بينما يسميها الآخرون بـ "التنبه". وهي أول صحيفة عربية تظهر في العالم العربي على الإطلاق.^{١٧} ولكن استمرت هذه الصحفية لفترة قصيرة فقط، توفقت هذه الصحيفة بجلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١م. فلذا لم يعدها الآخرون بأول صحفية عربية. كما قال علي كنعان: بدأت الصحافة العربية منذ العقد الثاني من القرن التاسع عشر، حينما أصدر الوالي داود باشا (١٧٩٧-١٨٥١م) أول جريدة عربية في بغداد اسمها "جورنال عراق" باللغتين العربية والتركية، وذلك عام ١٨١٦م.^{١٨} ثم أعقبها صحيفة "جورنال الحديوي" في عام ١٨٢٧م، أنشأها محمد علي الكبير (١٧٦٩-١٨٤٩م)، والي مصر، والتي ما

لشت أن تحولت في ٢٠ نوفمبر عام ١٨٢٨م إلى "الوقائع المصرية". أما ثالث صحيفة عربية هي صحيفة "المبشر" الجزائرية، فقد أصدرها المستعمرون الفرنسيون في مدينة الجزائر عام ١٨٤٧م بأمر من الملك "لوي فيليب" باللغتين العربية والفرنسية.^{١٩} أما أول عربي أصدر صحيفة عربية فهو رزق الله حسون الحلبي (١٨٢٥-١٨٨٠م) الذي أصدر جريدة "مرآة الأحوال" في إسطنبول عام ١٨٥٥م. وتلاه بعد ثلاث سنوات خليل الخوري اللبناني (١٨٣٦-١٩٠٧م)، فأصدر جريدة "حديقة الأخبار" عام ١٨٥٨م في بيروت. فكانت بذلك أول صحيفة عربية مستقلة يصدرها عربي في البلاد العربية.^{٢٠} وبعد ذلك نشر العديد من الصحف في العالم العربي، مثل جريدة "الجوائب" العربية لأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧م)، وجريدة الشهباء. والمؤيد واللواء والسياسة والبلاغ والجهاد والمقتبس وغيرها. ومن الصحف القديمة التي لا زالت تصدر في مصر جريدة "الأهرام"، والتي صدرت لأول مرة في عام ١٨٧٥م.^{٢١}

فن المقالة الحديثة

إن المقالة هي مصدر ميمي لفعل (قال)، وهي وردت بصيغة التذكير (مقال) وبصيغة التأنيث (مقالة) معاً. ولفظ "مقال" من الناحية اللغوية مأخوذة من (القول) بمعنى الكلام، أو ما يتلفظ به اللسان.^{٢٢} وذكر في القاموس المحيط القول هو الكلام أو كل لفظ مُدِلُّ به اللسان، الجمع أقوال وجمع الجمع أقاويل، أو القول في الخير، والقول والقيل في الشر. أو القول مصدر والقول والقول اسمان له.^{٢٣}

وقد عرفها الدكتور محمد يوسف نجم (١٩٢٥-٢٠٠٩م) بأنها: "قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق". وشرطها الأول أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب.^{٢٤}

نشأة المقالة وتطورها

المقالة هي فن حديث في جميع الآداب وخاصة في الأدب العربي، وإن وُجدت أمثال المقالة في الفن القديم، ولكن كانت غير مستقلة لا يحكمها ضابط ولا يحدها قانون. ثم بعد القرن السادس عشر صارت المقالة فناً مستقلاً في الآداب العالمية بمحاولة الكاتب الفرنسي ميشيل دي مونتيني (Michel De Montaigne) (١٥٣٣-١٩٩٢م). وهو رائد المقالة الحديثة.^{٢٥} إن مونتيني قد بدأ يكتب مقالة سنة ١٥٧١م. وهذه المقالة تشتمل على آرائه وعلى الحكم والأمثال وجوامع الكلم التي تحدت إلى أوروبا عن الآداب القديمة. وفي سنة ١٥٨٠م جمع المقالات التي كان قد كتبها، وعدتها أربعة وتسعون، ونشرها في جزئين سماها (Essais) وأراد بها محاولات. وفي سنة ١٥٨٨م أخرج طبعة جديدة نُقح فيها مقالاته السابقة، وتولاها بالصلل والتهديب، وضم إليها ثلاث عشرة مقالة جديدة، كان من بينها بعض تلك المقالات التي استهل بها شهرته الأدبية، حتى في سنة ١٦٠٣م ترجم كتاب مونتيني إلى الإنجليزية، وقبله أدبها قبولاً حسناً وشرع يترسمون خطى مونتيني وينسجون على منواله. حتى برز من بين من حاكاه أديب محام إنجليزي هو فرنسيس باكون (Francis Bacon) (١٥٦١-١٦٢٦م). وأول أثر مقالي في اللغة الإنكليزية هو المجموعة الأولى من مقالاته الأخلاقية التي نشرت عام ١٥٩٧م، واستعار لها العنوان المحاولات (Essays) من كتاب مونتيني. وعدة المقالات في هذا الكتاب كانت عشرة. وما زال باكون يبحث في محاولاته المقالية ويتبع ويتأمل فيها حتى يتطلع على أسلوب جديد وطريقة بديعة للمقالة، فأصدر الكاتب مجموعته الأخيرة للمقالة سنة ١٦٢٥م. وضم فيها ثماني وخمسين مقالة بما فيها مقالاته التي نشرها في مجموعته السابقة. ثم أخذت المقالات

في الانتشار وأقبل الكُتَّاب على الكتابة في هذا الفن وأخذ يستعد للمقالة جمهور من القراء وبخاصة في إنجلترا. وقد ساعد في ازدهارها وانتشارها ترحيب الصحف والمجلات بها. فقد اتسعت لها صفحات الجرائد والمجلات وأقبل على كتابتها كتاب مشاهير.^{٢٦} ومن أعلام كتاب المقالة - دانيال ديفو (Daniel Defoe) (١٦٦٠-١٧٣١م) وجوزف أديسون Joseph Addison (١٦٧٢-١٧١٩م)، وريتشارد ستيل (Richard Steel) (١٦٧١-١٧٢٩م)، وجوناثان سوينفت Jonathan Swift (١٦٦٧-١٩٤٥م)، وصامويل جونسون (Samuel Johnson) (١٧٠٩-١٧٨٤م)، وأوليفر جولد سميت (Oliver Gold Smith) (١٧٢٨-١٧٧٤م)، الذين وصلوا بهذا النوع المقالي إلى الذروة.^{٢٧}

المقالة العربية

ربط كثير من الدارسين أصول المقالة بعدد من الفنون العربية القديمة كالخطبة والمقامة والرسالة. ولكننا نرى أن ربطها بالخطبة أمر لا يصح. إذ إن المقالة فن مكتوب له شروطه الخاصة، كما أن الخطبة فن قولي شفوي يشترط خطيباً ومستمعين وأسلوباً خاصاً يختلف اختلافاً بيناً عن المقالة. أما صلتها بالمقامة فهي تقترب من القصة والفنون السردية لكنها بعيدة عن طبيعة المقال وبنائه. وإذا كان ثمة تقارب بين المقالة الحديثة وبين أثر من الآثار القديمة، فهو بينها وبين الرسالة. ومع الإقرار بهذا التقارب تظل هناك فوارق جمة، لكن الصحيح هو الحكم بالتشابه بين النوعين تشابهاً عميقاً.^{٢٨}

أما نشأة المقالة العربية الحديثة فهي متصلة بالصحف العربية، ومتأثرة بالمقالة الغربية في القرن الثامن عشر وما بعده، التي نشأت ونحضت بدورها متصلة بالصحف الغربية، واستمدت منها نسمة الحياة منذ ظهورها وخدمت بأغراضها المختلفة وحملت إلى قرائها آراء محرريها وكتابها. والمقالة العربية الحديثة قد مرّت عليها في الأدب العربي عدّة أطوار. منها: طور المدرسة الصحفية الأولى، ويمتد هذا الطور من بداية ظهور المقالة حتى الثورة العربية. ويمثلها كتاب الصحف الرسمية التي أصدرتها الدولة أو أعانت على إصدارها. ومن أشهر كتابها - رفاة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣م)، أحمد فارس الشدياق، عبد الله أبو السعود (١٨٢٠ - ١٨٧٨م) وغيرهم، وقد نشرت مقالات هؤلاء الأعلام في "الوقائع المصرية" و"الجوائب" و"وادي النيل" و"الوطن" و"روضة الأخبار" و"مرآة الشرق" وغيرها. أما الطور الثاني فهو طور المدرسة الصحفية الثانية. وبداية هذا الطور كان بدعوة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م) ونشأة الحزب الوطن الأول وروح الثروة والاندفاع التي سبقت الحركة العربية. وقد برزت في هذا الطور أسماء كتاب مقالين، من أمثال أديب إسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٥م)، سليم النقاش (١٨٨٤م)، بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣م)، عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ - ١٩٠٢م)، وغيرهم. هم يكتبون على صفحات "الأهرام" و"مصر" و"الحقوق" وسواها. وأما الطور الثالث فهو طور المدرسة الصحفية الحديثة. هذه المدرسة نشأت في عهد الاحتلال وتأثرت بالنزعة الوطنية الإصلاحية التي سبقته وبالنزعة الحزبية التي تليه. وهي التي شرعت تتجه في موضوعاتها إلى الشؤون السياسية بخاصة، وإلى الشؤون الاجتماعية والتربوية، وإلى الأوضاع المتردية التي كان يعاني منها المجتمع العربي بعامه.^{٢٩} ومن أشهر كتابها ولي الدين يكن (١٨٧٣ - ١٩٠٢م)، خليل مطران (١٨٧١ - ١٩٤٩م)، نجيب الحداد (١٨٦٧ - ١٨٩٩م)، أحمد لطفي السيد (١٨٧٠ - ١٩٦٣م)، محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م)، سلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨م)، إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٩٠ - ١٩٤٩م)، عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤م)، وطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣م) وغيرهم. والطور الرابع أيضاً طور المدرسة الحديثة، لكن هو شهد قيام المدرسة الحديثة كاملاً تام الأركان. ويبدأ هذا الطور مع بداية الحرب

العالمية الأولى. فتعكس ملابسات الحرب وما واكبها ولحقها من أحداث شملت أقطارا عدة في العالم العربي. وأثرت بعمق في حياة تلك الأقطار السياسية والاجتماعية. ومن أبرز مشاهير الكتاب مُجدّ تيمور (١٨٩٢ - ١٩٢١م)، ومحمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣م)، وبعض من السابقين.^{٣٠}

أثر الصحافة في تطور المقالة

إن الصحافة قد أثرت في المقالة من حيث الانتشار والشيوع، ومن حيث الموضوعات والأغراض، ومن حيث البنية والأسلوب، فبتنا قادرين أن نسمي المقالة في هذه الحقبة بالمقالة الصحفية. ومن الثابت أن فن المقالة، ولا سيما الأدبي منه، قد رأى النور في عصر النهضة الأوروبية. في أول الأمر كان يكتب أصحاب المقال مقالاتهم وينشر في كتب، ولكن بعد ظهور الصحافة المنتظمة مالوا إلى الصحافة وأصدروا مقالاتهم في الصحف والجرائد. أول جريدة رسمية صدرت في أوروبا هي "لا غازيت دي فرانس"، وكانت لا تنشر المقالات بل أخبارا من كل لون داخلية وخارجية.^{٣١} ثم في القرن الثامن عشر ظهرت بعض الصحف وقامت بإصدار المقالات فيها. ولها دور مهم في تحضة فن المقالة وتطورها، إذ أفردت مساحة كبيرة لكتابة هذا الفن. ومن هذه الصحف: الصحيفة اللاتينية التي ظهرت عام ١٦٩١ باسم (Athanian Faxeti)، وصحيفة "تايلر" (Tyler) (١٧٠٩م) وصحيفة (The Spectator) (١٧١١م).^{٣٢} وينسب إلى دانيال ديفو أولية كتابة مقالات سياسية يناقش فيها سياسة الحكومات من خلال صحيفته "ذي ريفيو" التي أصدرها في لندن عام ١٧٠٤م.^{٣٣} وفي القرن التاسع عشر يتسع نطاق المقال الصحفي على يد مجموعة من المقالين البارزين، من أمثلة: رتشارد لامب (Charles Lamb) (١٧٥٠-١٨٣٤م)، ولي هنت (Leigh Hunt) (١٧٨٤-١٨٥٩م)، ووليم هازليت (William Hazlitt) (١٧٧٨-١٨٣٠م) وغيرهم. أما العصر الذهبي للمقال الصحفي فهو المقالات الصحفية التي ظهرت في الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر بفضل جهود كتاب الأمريكية، منهم وليم كولين برايان (William Cullen Bryant) (١٩٤-١٨٧٨م) وهوراس جريلي (Horace Greeley) (١٨١١-١٨٧٢م) وهنري رايموند (Henry Raymond) (١٨٢٠-١٨٦٩م) وغيرهم.^{٣٤}

أثر الصحافة العربية في تطور المقالة

إن الصحافة قد عنت بالمقال في شتى الأغراض وبخاصة المقال الأدبي. وكان مصر ولبنان أقدم الدول العربية وأسبقها في إنشاء المقالة وتطورها حول الصحافة، جرائد كانت أو مجلات، متصلين بالغرب وتهديةهم. وسير المقالة في لبنان كان سريعا، وتطورها كان موازيا لسير الصحافة وتطورها. لأن لبنان أسبقت في حمل لواء التجديد اجتماعيا وفكريا وأديبا لصفات وميزات التي ميزته عن غيره من الأقطار العربية، ولأسبقيته في الاتصال غير المتردد بالغرب وبالحضارة الغربية، وضيق الرقعة، ولطبيعة التوزع السكاني، وللتفاعل بين المهاجرين اللبنانيين والشعوب التي اختلطوا بها وعاشوها.^{٣٥} فأول جريدة سياسية شعبية ظهرت في لبنان هي "حديقة الأخبار" (١٨٥٨) لخليل الخوري. وقد أعانته على تحريرها بعض أدباء العصر ومنهم أخوه سليم الخوري (١٨٨٧-١٩٨٤م) وسليم الشلفون وميخائيل المدور وغيرها. وبعد هذه الصحافة ظهرت صحف يوسف الشلفون (١٨٣٩-١٨٩٦م) وهي "الشركة الشهرية" و"الزهرة" و"النجاح" و"التقدم". ولم يخرج في أسلوبه الصحفي عن النهج الذي سار عليه محررو "حديقة الأخبار". ثم تطورت الحركة الصحفية بعد الدستور العثماني، وانتشار الحرية الفردية والشعور بالكرامة لتسهم في توطيد أسس هذا العهد الجديد. فلمع من الكتاب بشارة الخوري (١٨٩٠-١٩٦٤م) في "البرق"، وجرجي شاهين عطية (١٨٣٥-١٩١٣م) في "المراقب"، وفيلكس فارس (١٨٨٢-١٩٣٩م) في "لسان الاتحاد"، وعبد الغني العريسي (١٨٩١-١٩١٦م) في "المفيد"، و"صدى المفيد" و"لسان العرب" و"الفتى العربي" وكان أول كاتب صحفي درس أصول هذا الفن في أوروبا.^{٣٦}

أما مصر فقد كان له أيضا أثر عظيم في تطور المقالة الصحفية. وإن كان اللبنانيون أسبقوا في هذا المجال باختلاطهم الأول بالغرب وتهذيبهم وثقافتهم، ولكن مصر لم يتخلفوا قاعدين، بل كانوا يسعون في حصول ذلك الفضل مع اللبنانيين ومساعدتهم فيه. حتى لنستطيع القول، إن بعض الأعلام الذين قادوا النهضة الصحفية في مصر، كانوا لبنانيين أو ممن تتلمذوا في عملهم الصحفي من لبنان ومارسوا فيه، كأنتوان الجميل، ويعقوب صروف، وسليم، وبشارة تقلا، وسواهم.^{٣٧} فأول صحيفة أصدرت المقالة الحديثة في مصر كانت هي "الوقائع المصرية" التي هي جزء من المدرسة الصحفية الأولى في الطور الأول من الأطوار المقالة الصحفية. وهذا قبل الثورة العربية في مصر.^{٣٨} ثم تأتي على التوالي صحف من أمثال "وادي النيل" و"الوطن"، و"روضة الأخبار"، و"مرآة الشرق". ثم جاءت صحيفة "الأهرام"، و"مصر والتجارة"، و"الفلاح والحقوق". وكلها كانت جزءا من المدرسة الصحفية الثانية.

في عهد الاحتلال قد ظهر بعض الأحزاب السياسية لتنظيم الكفاح ضد الإنكليز والأتراك وفقا لفلسفتها ومثلها الخاصة. وأصحاب هذه الأحزاب قد أصدروا رسالاتهم في الصحف والجرائد. فكان علي يوسف (١٨٦٣-١٩١٣م) يمثل حزب الإصلاح ويحمل جريدة "المؤيد" رسالته، ومصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨م) يمثل الحزب الوطني وينشر مبادئه على صفحات "اللواء"، ولطفي السيد (١٨٧٢-١٩٦٣م) يمثل حزب الأمة الذي كان يضم مثقفي ذلك العصر وينشر أفكاره السياسية والثقافية على صفحات "الجريدة". وهذه الصحافة الجريدة قد تميزت في ذلك الحين. بأنها تحمل دعوة التجديد والبعث على أساس العلم الحديث. ثم في وقت ما بين ١٩١٤ - ١٩١٩م، في وقت الحرب العالمية الأولى، وبعدها من الوقت قد ظهر من الصحف التي تركت أثرها في الحياة الأدبية عامة وفي المقالة خاصة. وهي: جريدة "السفور" لعبد الحميد حمدي (١٩١٥)، وقد اجتذبت إليها أكثر كتاب الجريدة، و"الوجديات" لمحمد فريد وجدي (١٩٢١)، و"الاستقلال" لمحمود عزمي (١٩٢١) وقد شارك في تحريرها الدكتور طه حسين، و"النهضة المصرية" لعبد الحميد حمدي (١٩٢٢)، و"السياسة" (١٩٢٢) لحسين هيكل، و"البلاغ" (١٩٢٣) لعبد القادر حمزة، و"كوكب الشرق" (١٩٢٤) لأحمد حافظ عوض، و"الأخبار" (١٩٢٥) لأمين الراجحي، و"الأسبوع" (١٩٢٥) لإبراهيم عبد القادر المازني. ثم ظهرت الصحف الحزبية والمستقلة الحديثة ك"المصري" و"صوت الأمة" و"الدستور" و"الأساس" و"أخبار اليوم" و"الأخبار". وكلها سارت على التقليد الصحفي الذي أرسى قواعده رجال الصحافة الحزبية في طورها الأول مع بعض التجديد الذي اقتضاه اتساع الثقافة وتدريب الكتاب واستحصاد ملكاتهم بالممارسة واتساع شؤون الحياة السياسية بعد معاهدة ١٩٣٢م.^{٣٩}

أثر المجالات في تطور المقالة

إن المجالات قد نشأت في الأدب العربية تبعا لنشأة الصحيفة اليومية. وإن نشأت الصحيفة في الأدب أولا وتمكن فيه، لكن تلاها المجالات في مدة بعيدة وأخذت تتوجه إلى الأدب. وأول مجالات نشأت في الأدب العربي هي في لبنان. فقد عرف لبنان المجالات في وقت مبكر من تاريخ نخصته بفضل جهود رجال المدرسة السورية المتمصرة. ولهم أثر كبير في نشأة المجلة العربية وتطورها. ففي سنة ١٨٧٠م ظهرت "الجنان" وهو أول مجالات في الأدب العربي.^{٤٠} ثم في نفس السنة ١٨٧٠م ظهرت فيها "الزهرة" و"المهماز" و"النحلة". وبعد ذلك أخذت المجالات تظهر على التوالي في لبنان. ففي سنة ١٨٧١م "النجاح"، وفي سنة ١٨٧٢م "المقتطف"، وفي سنة ١٨٧٦م "المشكاة"، و"الجامعة" سنة ١٨٩٤م، و"المشرق" سنة ١٨٩٨م، "المرأة الجديدة" (١٩٢١) و"منيرفا" (١٩٢٣) وهما نسائيان، و"الكشاف" و"المعرض" و"الجمهور" و"المكشوف" و"الأديب" وسواها.^{٤١}

أما مصر فقد تباطأت نشأة المجلات فيه من اللبنانيين. لأن المصريين لم ينتبهوا إلى أثر المجلة وأهميتها في النهضة الأدبية والاجتماعية أول الأمر. هم يميلون إلى المجلات بعد الثورة المصرية التي انضجت بذور الوعي القومي في نفوس المصريين، ولهذا رأينا إقبالا كبيرا عليها في ذلك العهد. وكان اللبنانيين أثر كبير في نشأة المجلات الثقافية والعلمية وتطورها وتهذيب أسلوبها في مصر. فقد أنشأ فيها لويس الصابونجي "النحلة الحرة" سنة ١٨٧١م. وهي أول مجلات في مصر. ثم جاء خليل اليازجي (١٨٥٦-١٨٨٩م) وأنشأ "مرآة الشرق" سنة ١٨٨٢م. وفي نفس السنة ١٨٨٢م أنشأ ميخائيل جرجس عورا (١٨٥٥-١٩٠٦م) "الحضارة"، وفي سنة ١٨٨٦م أصدر الدكتور شبلي الشميل (١٨٥٠-١٩١٧م) "الشفاء" وشاهين مكاريوس (١٨٥٣-١٩١٠م) "للطائف". ثم في سنة ١٨٨٥م انتقلت "المقتطف" إلى مصر من لبنان. وفي سنة ١٨٩٢م صدرت مجلة "الهلال". وبعد ذلك أنشأ شاعر شقيق (١٨٥٠-١٨٩٦م) "الكنانة"، وأنشأ إبراهيم اليازجي "البيان" و"الضياء"^{٤٢}. وأنشأ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦-١٩٢٩م) مجلة "الهداية" عام ١٩١٠، وأنطون جميل (١٨٨٧-١٩٤٨م) "الزهور" في نفس العام. وبعد ثورة ١٩١٩م قلد المصريون اللبنانيين في إنشاء المجلات وتنسيقها. فكانت المجلات المتخصصة في مجالات العلوم والفنون والصناعات، وظهرت المجلات التي تهتم بالمقال الأدبي، مثل "الثورة" (١٩٢٤)، و"الفجر" (١٩٢٥)، و"الزهراء" (١٩٢٦)، و"المصور" (١٩٢٦)، و"السياسة الأسبوعية" (١٩٢٦)، و"البلاغ الأسبوعي" (١٩٢٦)، "أبو اللو" (١٩٣٢)، و"الرسالة" (١٩٣٣)، و"الشباب" (١٩٣٦)، و"الثقافة" (١٩٣٩)، و"الكتاب المصري" (١٩٤٥)، و"الكتاب" (١٩٤٥).^{٤٣}

ولكن المهم من هذه المجلات التي لعبت دورا مهما في نهضة العربية الأدبية مجلة "المقتطف" التي وضعت أسس المنهج العلمي في الكتابة والتفكير في العالم العربي. وكانت في طورها الأول حين تولى تحريرها يعقوب صروف أكثر تعلقا بالأبحاث العلمية. ثم حدث فيها التوازن بين العلم والأدب حين تولى تحريرها الأستاذ فؤاد صروف. وكذلك "الهلال" لزيدان التي احتفظت بطابع البحث العلمي في التاريخ والأدب على عهد منشئها. ثم مالت إلى التنوع واجتذبت عددا كبيرا من كتّاب الشرق العربي بعد وفاته سنة ١٩١٤م. أما المجلات الحديثة فقد نشأت نتيجة للصراع بين الأحزاب. فلمجلة "السياسة الأسبوعية" و"البلاغ الأسبوعي" خدمات لا تُنكر. فعلى صفحات "السياسة الأسبوعية" قرأنا أول دعوة للأدب القومي المصري وفيها أصدر طه حسين مقالاته في الأدب والنقد وصورة البشري باسم "في المرأة". أيضا ظهرت فيها مقالات مُجدِّد حسين هيكل النقدية والتاريخية والاجتماعية ولعدد كبير من كتاب النهضة. وفي البلاغ الأسبوعي، دخل العقاد طورا جديدا من حياته الأدبية بعد الطور الأول الذي قطعه في "البيان" و"الجريدة" وقرأنا قصص السباعي ومقالاته الأدبية. ثم أخذت تتغير ميزات المقالة بشكل العام اعتبارا أسلوبيا واعتبارا بنائيا حيث مالت المقالة إلى التخصص. ففي سنة ١٩٣٣م خرجت "الرسالة" وأسهم في تحريرها طه حسين وأعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر الذين استقلوا سنة ١٩٣٩م بمجلتهم "الثقافة". وفي نهاية الحرب العالمية الثانية صدرت بعض المجلات الأدبية الرصينة التي كادت تنسخ أثر المجلات مثل الرسالة والثقافة والمقتطف والهلال. ومنها "الكتاب المصري" (١٩٤٥) التي تولى تحريرها الدكتور طه حسين، و"الكتاب" (١٩٤٥) التي أصدرتها دار المعارف وتولى تحريرها عادل الغضبان.^{٤٤}

أخيرا نستطيع أن نقول موجزا أثر الصحافة في تطور المقالة بما يلي:

١. التأثير بالغرب وصحافته.
٢. ظهور المدرسة الصحفية الحديثة، وبرزت صحف كثيرة من مثل التنبيه، والوقائع المصرية، والمؤيد، واللواء، والجريدة، والسفور، والسياسية، والبلاغ وغيرها.
٣. ظهور المجالات المتخصصة التي أحاطت بمكونات المقالة العربية.
٤. تطوير اللغة وتهذيب أسلوب الكتابة بحيث أصبح أداة مواتية لنقل الأفكار الحديثة.
٥. اتساع صفحاتها لنشر مختلف أنواع المقالة من ذاتية وموضوعية.
٦. خلق طبقة من الكتاب الذين عنوا بفن المقالة وجعلوها الوسيلة الأولى لنقل أفكارهم وإذاعة آرائهم.
٧. لقد أثرت الصحافة في تطور المقالة لا في نشأتها والوصول بها، بل إلى درجة الدقة والتركيز وحسن العرض وسلامة اللغة وسلاسة الصياغة أيضا .
٨. صارت مضامين المقالة أكثر ثراءً وغنيا حتى شبهها بعضهم بحقيبة فكرية حافلة بصنوف المعرفة.
٩. بروز شخصية صاحب المقالة من خلال مواقفه وآرائه وقوة التعليل لها والقدرة على الإقناع.
١٠. المنهجية في عرض الأفكار من مقدمة وعرض وخاتمة.
١١. خلّصت الصحافة المقالة من قيود السجع والتخريف اللفظي الموروثة عن عصر الضعف فصارت تصاغ بأسلوب بسيط وسهل.

الخاتمة

إن المقالة لم تظهر في الأدب العربي كقرنٍ مستقل في أول الأمر، بل نشأت في حضن الصحافة واستمدت منها نسمة الحياة منذ ظهورها وخدمت أغراضها المختلفة وحملت إلى قرائها آراء محرريها وكتابها. وللصحافة أثر عظيم في المقالة، ولم يكن تأثير الصحافة في المقالة مقصورا على التأثيرات البنيوية أو المضمونة فحسب. بل الأمر منه الأعمق، إذ جعل المقالة خاضعة لروح العصر حاملة ألوية مواكبتها. فقد أسهم كتاب المقالة الصحفية في تشكيل ذوق العصر بما طرحوه من آراء، اتخذت شكل مناظرات خلفت حلقات نقاش في المنتديات والمقاهي في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

الهوامش

- ^١ ابن منظور، لسان العرب (بيروت: دار صادر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م)، ص: ٢٤٠٤.
- ^٢ فيروز آبادي، القاموس المحيط (بيروت: دار المعارف، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٩م)، ص: ٩١٦.
- ^٣ إبراهيم مصطفى وزملاءه، معجم الوسيط، الصحافة رسالة واستعداد وعلم وفن (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م)، ص: ١٣-١٤.
- ^٤ The Oxford Dictionary, Volume 2 (London: Clarendon Press, Third Edition, 1933), p. 162-163.
- ^٥ علي أحمد كنعان، الصحافة مفهوماً وأنواعها (الأردن: دار المعتز، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م)، ص: ٦.
- ^٦ أدب مروءة، الصحافة العربية: نشأتها وتطورها (بيروت: دار الحياة، ب.ت)، ص: ١٧-١٨.
- ^٧ المصدر السابق، ص: ٥.
- ^٨ المصدر السابق، ص: ١٤.
- ^٩ الصحافة مفهوماً وأنواعها، ص: ٦.
- ^{١٠} أبو لويس المعلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ب.ت)، ص: ١٤.

- ١١ الصحافة العبية نشأتها وتطورها، ص: ١٤-١٥.
- ١٢ طرازي، فيليب، تاريخ الصحافة العربية نشأتها وتطورها (بيروت: مكتبة الحياة، ب.ت.)، ص: ١٥.
- ١٣ الصحافة العربية: نشأتها وتطورها، ص: ٥٤.
- ١٤ المصدر السابق.
- ١٥ خليل صويبات، وسائل الاتصال نشأتها وتطورها (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة السادسة، ١٩٩١م)، ص: ٧٥-٧٧.
- ١٦ علي أحمد كنعان، الصحافة مفهومها وأنواعها، المصدر السابق، ص: ١٥-١٦.
- ١٧ الصحافة العربية: نشأتها وتطورها، ص: ١٤٢.
- ١٨ الصحافة مفهومها وأنواعها، ص: ٢٦.
- ١٩ الصحافة العربية: نشأتها وتطورها، ص: ١٤٢.
- ٢٠ المصدر السابق، ص: ١٤٣-١٤٤.
- ٢١ الصحافة مفهومها وأنواعها، ص: ٢٦.
- ٢٢ الدكتور صالح أبو إصبع والدكتور محمد عبيد الله، فن المقالة - أصول نظرية - تطبيقات - نماذج (عمان: دار مجد لاوي للنشر والتوزيع، ٢٠٠١م)، ص: ١٠.
- ٢٣ القاموس المحيط، ص: ١١٠٤.
- ٢٤ د. محمد يوسف نجم، فن المقالة (بيروت: دار الثقافة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦م)، ص: ٩٥.
- ٢٥ المصدر السابق، ص: ٧.
- ٢٦ المصدر السابق، ص: ٤٨ - ٥١.
- ٢٧ أسعد نصر الله السكاف، المقالة: فن وتاريخ ومختارات (بيروت: دار نظير عبود، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م)، ص: ٤٦ - ٤٧.
- ٢٨ فن المقالة؛ أصول نظرية تطبيقات نماذج، ص: ١٤.
- ٢٩ د. محمد يوسف نجم، فن المقالة، المصدر السابق، ص: ٦٦؛ أسعد نصر الله السكاف، المقالة: فن وتاريخ ومختارات، ص: ٦٦.
- ٣٠ المقالة: فن وتاريخ ومختارات، ص: ٦٦ - ٦٧.
- ٣١ الصحافة مفهومها وأنواعها، ص: ١٥.
- ٣٢ د. سليمان موسى فضالة، فن المقال الصحفي (الأردن: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤م)، ص: ٤٤-٤٥.
- ٣٣ محمد منير حجاب، المقال الافتتاحي (طنطا: مؤسسة سعيد للطباعة، ١٩٨٧م)، ص: ١٩.
- ٣٤ د. سليمان موسى فضالة، فن المقال الصحفي، المصدر السابق، ص: ٤٥-٤٦.
- ٣٥ المقالة: فن وتاريخ ومختارات، ص: ٦٩.
- ٣٦ فن المقالة، ص: ٧١-٧٢.
- ٣٧ المقالة: فن وتاريخ ومختارات، ص: ٦٩.
- ٣٨ فن المقالة، ص: ٦٦.
- ٣٩ المصدر السابق، ص: ٦٧-٦٩.
- ٤٠ السيد مرسى أبو ذكرى، المقال وتطوره في الأدب المعاصر (مصر: دار المعارف، ١٩٨٢م)، ص: ٦٤.
- ٤١ المصدر السابق، ص: ٧٧.
- ٤٢ فن المقالة، ص: ٧٣-٧٤.
- ٤٣ المقال وتطوره في الأدب المعاصر، ص: ٦٤-٦٥.
- ٤٤ فن المقالة، ص: ٧٥-٧٦.